

## جميل العارف بالصحافة

«١»

إذا كان علينا أن ننظر إلى الحاضر بغضب، فعلينا أيضًا أن ننظر إلى نفس الحاضر بخجل!

إن بارونات الصحافة هذه الأيام لا يختلفون كثيرًا عن باشوات الصحافة أيام زمان، أي قبل ثورة ٢٣ يوليو، إنهم الباشوات الذين يتحكمون ويتاجرون في أرزاق الصحفيين الذين كانوا يعملون معهم في الصحافة، وذلك بعدما أصبحت الصحافة المصرية جارية في حرمك الطغيان في بلد لم يعد فيه من سلطة سوى سلطة الديكتاتور الواحد، وطغمة من محترفي التآمر والتسلط وحلفائهم الإخوان وبقية دكاكين الإرهاب المعادية للديموقراطية ولنضال الشعب.

«في بلد فَقَدَ نخبته، ويُسْتعمل فيه الجهل والأمن والدين كأدوات سياسية لتدمير المؤسسات الشعبية وسقوط الدولة، كان من الطبيعي أن تحتل ثقافة الرعاع أغلب الصحف، وساعات الإرسال المرئية والمسموعة، وأن يتم تقسيم الصحفيين إلى تابعين ومعادين، ويتحول شرف المهنة إلى شرف شخصي وكبرياء ومعاناة لدى بعض الصحفيين، في حين ينقلب لدى البعض الآخر إلى دستور للنفاق والفساد، وتكرس الصفحات لنجوم الاحتراف الديني ورعاة التدين السطحي، وللأسئلة الفاسدة والأجوبة الأكثر فسادًا، وتصبح السطور أداة للفتنة الوطنية وتغطية

جاهزة وتبريرا يوميا لتبديد الوطن، ويسقط الفاصل بين الأمن والصحافة».

هكذا قال العارف بالصحافة جميل عارف في مقدمة كتابه الأجل «أنا وبارونات الصحافة» الذي جمع فيه خلاصة خبراته وتجاربه وحكايات وأسرار المهنة، ورواها بأسلوب جاذب وشيق وممتع ولاذع وحكي أسارا كثيرة لم تكن لتُروى لولاه، ومنها أن نقابة الصحفيين كان مقرها الرسمي الأول داخل شقة كانت نادياً للقمار!

وكانت هذه الشقة تشغل الدور الأرضي من مبنى قديم يتكون من دورين في المكان الذي بنيت فيه عمارة «وهبي» وهي المواجهة للبنك المركزي عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل، وكانت عبارة عن غرفة واحدة وثلاث صالات كبيرة. وكان بوليس الآداب قد داهم الشقة لكونها وكراً للعب القمار، وقام بضبط بعض الجرائم المخالفة للقانون فيها، وأراد فؤاد سراج الدين - وكان وزيراً للداخلية والشؤون الاجتماعية في حكومة «الوفد» التي جاءت إلى الحكم بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ - مجاملة الصحفيين فأمر بمصادرة الشقة، وتسليمها لهم في مقر نقاباتهم!

«٢»

جميل عارف كان دائماً يتخذ خط النار سكناً. فقد حضر الحرب العالمية الثانية، وكان أول صحفي يزور اليمن في ١٩٤٧ أيام الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن. وبعدها بعام واحد فقط عمل مراسلاً حربياً في أثناء حرب

فلسطين عام ١٩٤٨. وحين وقع العدوان الثلاثي على بورسعيد في عام ١٩٥٦ كان حاضرا بجوار الفدائيين يرصد ما يجري على خط النار، وشهد ثورة لبنان في ١٩٥٨، وكان شاهدا على الانقلابات العسكرية في سوريا، وتابع من داخل المدن العراقية ثورات العراق، ورصد ثورة السودان بتفاصيلها، وعاش مع أبطال جيش التحرير الجزائري داخل الأراضي الجزائرية إثر اندلاع الثورة في بلد المليون شهيد.

لم يذهب إلى دولة إلا إذا قامت فيها حرب أو ثورة، لذا عاصر أغلب حركات التحرر في الوطن العربي وإفريقيا، وقام بجولات صحفية في ١٠٩ دول في مختلف أنحاء العالم على مدار ٥٠ عامًا، واشتهر بتحقيقاته الصحفية التي كتبها عن الدول الإفريقية بعد أن حصلت على استقلالها.

وعاصر أحداث الجامعة العربية منذ إنشائها، وعمل لمدة ١٥ عامًا محررًا للشؤون العربية، وكان موضع ثقة عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة، لذا قام بنشر مذكراته السرية التي قرأها الرئيس السادات وتأثر بها في أثناء كتابة مذكراته! وكان ترتيبه في عام ١٩٧٠ رقم ٥٢ في أقدمية الصحفيين بجدول نقابة الصحفيين المصرية، لكنه رغم تاريخه المهني الطويل لم يجلس على مكتبه ينتظر الخبر بل كان يذهب إليه حيثما كان منذ أن التحق بالعمل الصحفي في عام ١٩٤٥ فور تخرجه في جامعة القاهرة وعمله في مجلة «المصور» التابعة لـ«دار الهلال»، لكنه انتقل منها ليعمل في مجلة «آخر ساعة» مع زميل دراسته الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذي كان زميلا له في نفس الفصل لمدة خمس سنوات كاملة، في مدرسة «السعيدية الثانوية»، وشاء القدر أن يلتقيا في «آخر ساعة» حين

صار بهاء رئيسًا لتحريرها، وعمل هو نائبًا له، وظل في موقعه لمدة ١٩ عامًا، ولم يتزكه إلا عندما ذهب ليعمل مديرًا لتحرير مجلة «أكتوبر»، وحين خرج على المعاش صار كاتبًا متفرغًا في مؤسسة «روزاليوسف».

«٣»

لم يَتلُ عارف الشهرة التي يستحقها، وتتناسب مع حجم عطائه، لكنَّ فارقًا هائلًا بين أن تكون صحفيًا كبيرًا، وأن تكون صحفيًا مشهورًا، فالشهرة ليست المعيار الأول لقيمة الصحفي وقامته، فبعض مشاهير الصحافة ليسوا كبارًا في المهنة، وبعضهم أقرب إلى مندوب العلاقات العامة الذي يعرف الجميع ويعرفه الجميع فقط لأنه يظهر في كل القنوات في مختلف الأوقات، وآراؤه ترضى عنها السلطة، وتُرضي القارئ والمشاهد والمُعلن! بعضهم يتم التعامل معه وتقديمه باعتباره مفكرًا كبيرًا رغم أنه بلا أي إنتاج فكري، وبعضهم يتم التعامل معه باعتباره خبيرًا ومحللاً استراتيجيًا رغم أنه لم يثبت أنه نجح في تحليل أي ظاهرة أو تقديم أي دراسة حقيقية، وبعضهم إنتاجه الأدبي ضعيف، ولكن يتم تصديره باعتباره أديبًا كبيرًا. لكن بالطبع هناك مشاهير يملكون قدرات خاصة، ومواهب عظيمة، وأفكارًا نبيلة، وحضورًا طاغيًا، لكن الأكثر شهرة ليس من الضروري أن يكون الأكثر كفاءة، ومهارة، وموهبة. جميل عارف كان من هؤلاء الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة لكن لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يجوز أن لا تعرفه أجيالٌ من الصحفيين الشباب الذين لم يقرأ بعضهم -للأسف- تاريخ المهنة،

ولم يعرف الرعيل الأول من الآباء المؤسسين لها، والمدافعين عنها الذين دفعوا في المهنة أعمارهم، دون أن يحصدوا أي مكاسب، رغم أنه كان صديقًا لعمالقة الفكر والأدب والصحافة، وكان صديقًا للأستاذ هيكل منذ أن تعرف عليه في أواخر الأربعينيات. ويصف هيكل علاقته بعارف قائلاً: «جميل عارف رفيق أيام خوالٍ تعود إلى أواخر الأربعينيات، حينما كنا وسط السحبات الوردية للصبا جيلًا جديدًا خطفت أحلامه مهنة البحث عن المتاعب فأعطاها نفسه، وقبلت بدورها عطاءه، وأخذت عمره كاملاً».

صداقة هيكل وعارف جعلت هيكل يُقدم لكتابه «أنا وبارونات الصحافة» رغم أنه كان يحمل نقدًا لاذعًا، وحادًا لعدد كبير من الصحفيين والساسة، لذا حين سأل عارف هيكل عن رأيه في الكتاب قال الأستاذ: «لا أنا مختلف مع الكتاب ولا أنا متفق معه»!

obeikandi.com

## ثمن المبادئ!

«١»

كان يدفع ثمن مبادئه راضيًا مطمئنًا، لذا كان ضيقًا دائمًا على سجون الأنظمة الحاكمة سواء من أيديها أو عارضها أو من تجاهلها!

المرة الأولى التي دخل السجن فيها كانت في عصر الملك فاروق، حيث كان يعارض الإقطاع ويهاجم النخبة الفاسدة والحاكمة، لكنه لم يكتفِ بذلك بل كوّن خلية ضد الاحتلال البريطاني وقرر مع أصدقائه تصفية ثلاثة من أشرس الموظفين البريطانيين وأشدهم دموية، وأرسلوا إلى الثلاثة حيثيات وأسباب الحكم المباشر بتصفيتهم! ومنحوهم مهلة أسبوعين لكي يستقبلوا من مناصبهم أو يرحلوا عن مصر بعد الجرائم التي ارتكبوها في حق الشعب، لكنهم سخروا من الخطابات التي وصلتهم، وظلوا في طغيانهم يعمهون، وفي نهاية الأسبوعين بالضبط تمت تصفية ثلاثتهم مما أحدث فزعًا مدويًا في الإدارة البريطانية التي استماتت في البحث عن الشباب الوطني الذي قام باغتيالهم، والمددهش أن الدكتور مصطفى مشرفة كان عضوا مؤسسًا في هذه الخلية!

أما المرة الثانية التي حلَّ فيها عودة ضيقًا على السجون فكانت في عصر الرئيس جمال عبد الناصر رغم كونه واحدًا من رموز الناصرية ومؤرخيها والمنتصرين لأفكارها، لكنه ظل على

موقفه كما هو، بل ويبرر ما حدث معه قائلا: «إن نصف مَنْ أعدمتهُم الثورة الفرنسية كانوا من زعماء الثورة»، ويضيف: «خلافنا مع عبد الناصر لم يكن تناقضًا بل كان خلافاً حول الأسلوب، أما الأهداف فكنا على اتفاق تام، وقد كان عبد الناصر يدعو كل الاتجاهات السياسية والوطنية لتسهم في بناء وطن جديد يراه عبد الناصر نموذجًا لدولة قومية ديموقراطية مستقلة، ونراه نحن كذلك، لكنَّ أسلوب التنفيذ كان موضع اختلاف بيننا».

أما المرة الثالثة فكانت في عهد الرئيس السادات عقب اتفاقية كامب ديفيد التي كان عودة واحدًا من أبرز معارضيه، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد اغتيال السادات، لكن عودة ظل على موقفه المعارض لسياسات السادات. ويفسر الفارق بين خلافه مع عبد الناصر وخلافه مع السادات قائلا: «إن خلافنا مع عبد الناصر كان خلافاً في إطار الهدف الواحد، بينما خلافنا مع السادات كان تناقضًا رئيسيًا».

وحين وصل مبارك إلى السلطة كان عودة قد جاوز الستين، ولم يعد اعتقاله جائزًا، ربما هذا هو السبب الوحيد لعدم دخول السجن في هذه الفترة!

«٢»

رغم شهرته بـ«غاندي الصحافة» فإنه كان ابنًا لأحد كبار التجار، لكن والده أشهر إفلاسه إبان احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات، وقرر أن ينتقل للعيش في حي الحسين بالقاهرة القديمة.

والطريف أنه في أول صباح له في حي الحسين خرج مع والده إلى محل «الهلوجي» لتناول طعام الإفطار من الفول المدمس، ففوجئ أن صاحب المحل كان يُعدّ صباح كل يوم طبقًا من الفول المدمس منزوع القشر ويحمله بنفسه إلى سعد زغلول باشا!

لم يكن هناك أمل أمام الأب إلا أن يتفوق ابنه محمد في دراسته ليتعلم بالمجان، لذا كان يقول له: «يا محمد أنت أملنا الوحيد في هذه الدنيا.. لم يعد لنا بعد الله غيرك يا بني»، ولم يخيب الابن أمل والده، فنجح وتفوق في المرحلة الابتدائية لدرجة أنه تم اختياره لإلقاء قصيدة ترحيب بزيارة الملك فؤاد للمدرسة، وسرَّ جلالته سرورًا بالغًا بالطفل محمد عودة وأهداه طاقم أدوات مكتب من الجلد الفاخر وعاد بالطقم فرحًا إلى البيت لكن والده لم يشاركه الفرحة، وكاد يطرده من البيت؛ إذ كان والده وفديًا حتى النخاع!

وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة «السعيدية الثانوية»، لكنه بدأ يشعر بالمهانة التي يعانها أبناء الفقراء، والسبب أن أولاد الأثرياء في «السعيدية» كانت تأتيهم الساندوتشات الجاهزة بينما أبناء الفقراء يهبّون مسرعين إلى اليمكخانه (قاعة الطعام) لنيل الطعام كالقطعان -على حد وصفه- لذا أدمن الهروب من المدرسة والذهاب إلى حديقة الحيوان حتى استدعاه الناظر وسأله عن سر غيابه، وقلّة تحصيله الدراسي فطلب نقله إلى فصل آخر بعيدًا عن فصل أولاد الذوات.

وتخرّج محمد في مدرسة «السعيدية» والتحق بكلية الحقوق، لكنه ثار على نظام التعليم في الكلية، وشعر أنه يُغيّب العقول،

فصار يتسلل إلى كلية الآداب للاستماع إلى محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب والدكتور شفيق غبريال في التاريخ.

«٣»

شقَّ عودة طريقه إلى صاحبة الجلالة بالكتابة في مجلة كانت ذائعة الصيت اسمها «مسامرات الجيب» واستمر بها حتى صدر قرار بإغلاقها، فانتقل إلى صحيفة «الجمهورية المصري» بصحبة مجموعة من المؤهوبين المَهْرَة الذين نجحوا في إثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك بأسلوب غير مسبوق، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها بالأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار.

ثم انتقل للعمل مذيغًا ومترجمًا في الإذاعة الهندية التي كانت تبث برامجها بالعربية من قلب العاصمة بنينودلهي، وكانت هذه أولى رحلاته خارج مصر، ويقول عنها: «إذا ذهبت إلى الهند لا بد أن تعود، وإذا عدت مرة لا بد أن تعود وتظل تعود». لكنه اضطرَّ إلى العودة إلى مصر بعد عامين من ثورة يوليو، وعمل صحفيًا في صحيفة «الشعب»، ثم تركها إلى «دار الهلال»، لكنه لم يأنس بوجوده داخل هذه المؤسسة، فانطلق إلى «روزاليوسف»، وهناك التقى أحد أصدقائه الذي كان يعمل سكرتيرًا لتحرير المجلة، فصافحه وطلب له كوبًا من الشاي ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الذشت» وقال له: «اكتب لنا شيئًا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات (روزاليوسف)»، وكتب، وعمل، فصار واحدًا من نجوم «روزاليوسف»، وأحد أعمدتها.

لكن المدهش أنه من فرط حبه للصحافة أصيب بـ«الملاريا» مرتين لكثرة ذهابه إلى أماكن الأوبئة، فلم يركن إلى الجلوس خلف المكاتب، ولم يكن يهوى رحلات الاستجمام بل كان مغامراً، ولم يكن فقط محباً للبسطاء بل كان واحداً منهم أيّاً كان موطنهم، وكتب مئات المقالات عنهم، لكنه لم يكتب كتباً كثيرة فاكتمى ببضعة كتب لكنها على قلة عددها بالغة الأهمية ومن بينها: «رحلة في قلب نهرو»، و«الصين الشعبية» الذي كان أول كتاب باللغة العربية يُكتب عن الصين، وكان ذلك عام ١٩٥٢، وقد رفضته الرقابة في بادئ الأمر إلى أن وقع المخطوط الأصلي من الكتاب بين يدي عبد الناصر، ففوجئ بالرقابة تتصل به لتخبرونه بموافقة عبد الناصر على نشره كاملاً!

كان الكاتب الكبير محمد عودة نموذجاً فريداً ودليلاً دامغاً على أنه لا يزال هناك متصوفون حقيقيون يعيشون بيننا، فرغم شهرته الواسعة لم يغادر شقته التي اتخذها سكناً منذ سنوات بعيدة رغم أن المصعد لم يكن يعمل بالعقار إلا نادراً، ويضطر عودة إلى أن يصعد على قدميه إلى الدور الثامن حيث شقته رغم أنه كان قد بلغ من الكبر عتياً، لكنه لم يجمع من المال ما يجعله يجد سكناً آخر، بل لم يمتلك سيارة خاصة حتى رحيله.

obeikandi.com

شعراء يَتَّبِعُهُمُ الْثَأْرُونَ

ولنا الدنيا هنا.. والآخرة

محمود درويش

obeikandi.com

## الجبـل المتحرك بالحـب والسخرية!

«١»

لو أن أحداً تبرّع، وتفرغ، وقرر أن يكتب حوارات كامل الشناوي في جلساته الخاصة لصار لدينا تراث هائل من الفكر والفن والسخرية، لكن لسوء حظنا أن تراث كامل الشناوي أغلبه شفاهي، فلم يهتم بتدوين ما يقوله، ولم يحاول أي باحث التنقيب عما جرى في هذه الجلسات التي كانت بمثابة تاريخ موازٍ للتاريخ الرسمي، لكنه تاريخ حقيقي وتاريخي مهم ومختلف ممن حضر، وشهد، وشاهد، ورصد، وفهم، وقرأ، ورأى، وسمع، وعلم، وفسّر، ثم سخر من كل الحكام!

فقد امتلك عمنا كامل الشناوي موهبة أنقل من الهرم الأكبر، وإحساساً أعلى من برج الجزيرة، ومعاني أعمق من البحر الأحمر، وعذوبة أعذب من ماء النهر، وخفة ظل يستظل بها الجميع.

إنه الجبل المتحرك بالحـب والسخرية، فكان إذا أحب، أحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره، كره بلا قيد ولا شرط -على حد تعبير عمنا محمود السعدني- ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويجاهد في سبيل أن يدفع بها خطوات إلى الأمام.

كان يقطر فنًا، وأدبًا، وسخرية، وثقافةً، وفكرًا، وشعرًا،

وإنسانيةً، وكل مَنْ حضر جلساته يحلف بها، ولا ينسى ما دار فيها، فقد نحت ألفاظًا جديدة، ومعاني مختلفة، وأفكارًا مبتكرة، وعبرَ عن مشاعر لم يستطع التعبير عنها غيره، فكلّماته على الورق كان لها صوت وصدى.

هكذا ظل الشناوي منذ عمل في جريدة «كوكب الشرق» عام ١٩٣٠ وبعدها بخمس سنوات اختاره الدكتور طه حسين ليعمل معه في جريدة «الوادي»، وفي الوقت نفسه عمل في مجلات «آخر ساعة» و«الإثنين» و«المصور» وحصل على لقب «بك» من الملك فاروق، وبعد الثورة صار رئيسًا لتحرير «الأخبار»، ورغم حدته فإن خفة ظله كان تجبّ كل شيء، وفي ذات الوقت لم يكن موقفه السياسي مائعًا بل كان واضحًا، لكنه أيضًا لم يكن منتميًا إلى حزب أو جماعة، فهو حزب مستقلّ، وجماعة ضخمة! لذلك يقول عنه أنيس منصور: «الشناوي اختار أن يكون عاشقًا للسياسة، وعاشقًا للقضايا الإنسانية، ولم يكن له لون سياسي، وإنما هو صديق الساسة، لهذا كان الثناء ينهال عليه من جميع الاتجاهات، فالجميع يتعامل معه كقيمة عظيمة فوق كل الاتجاهات والميول والأحزاب، والسر أنه معجون بالمصرية المتسمة بالتسامح والمكر وسعة الصدر».

«٢»

كان ميلاده عقب وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل، فسّماه والده مصطفى كامل تيمُنًا بالزعيم الوطني، وألحقه بالأزهر، لكنه لم يرتدِ العمامة والجبّة والقفطان سوى خمس سنوات فقط بعدها هرب من حي «الحسين»، وذهب إلى

شارع «عماد الدين» حيث المسارح والسينما، ووجد ضالته في القراءة، ومجالس الأدباء، فدرس الآداب العربية والأجنبية، وصار من الهاوين والغاوين للشعر، وأعلامه، فغنى من كلماته كبار مطربي عصره، من أم كلثوم إلى عبد الوهاب، من فريد الأطرش إلى عبد الحليم حافظ، ومن نجاة إلى شادية لذلك أحزن حين أجد أنه لا أحد يعرف عن كامل الشناوي سوى أنه مؤلف أغنية «لا تكذبي»، كأنه لم يكتب غيرها، وقطعاً أسهمت في ترويح هذا الشعور الأسطورة التي تكمن وراءها!

كان البعض يفكر كثيراً قبل المرور أمام مكتب كامل الشناوي حتى لا يلمحه، ويطلق عليه نكاته، فيصير مثاراً للسخرية، ومضرباً للأمثال بين الناس.

فقد كان عمنا كامل الشناوي من ألمع ظرفاء عصره، وكانت سخريته تطال الجميع، من الرئيس إلى الخفير، ومقابله كانت لا تترك أحداً، فلم يسلم منها حتى شقيقه المعتز بالله الشناوي الذي حين تخرج محامياً أعدت له الأسرة لافتة ضخمة كُتب فوقها «المحامي أمام المحاكم الشرعية» فتسلل كامل ليلا ليزيل كلمة «أمام» ويكتب بدلا منها «وراء» وظلت اللافتة أياماً قبل أن ينتبه المعتز لما جرى فيها، فذهب يشكو كامل أخاه إلى والده الصارم والقاضي الشرعي، لكنه نجا من العقاب عندما فسر تصرفه بأن محل إقامتهم كان بالفعل خلف المحكمة الشرعية وليس أمامها!

وبعدما استقر الأب في القاهرة نائباً لرئيس المحكمة الشرعية العليا، واختار لأسرته مسكناً من طابقيين في منطقة الأعيان بالسيدة زينب في جينة ياميش، مخصّصاً غرفة في الطابق الأسفل لابنه الأكبر كامل للتفرغ للدراسة الثانوية بالأزهر، وكان للحجرة

باب يفضي إلى الشارع تأتي منه شلة الأُنس ومن بينهم محمود المليجي وزكي طليمات وفتحي رضوان وغيرهم من نجوم الفن والسياسة، وفي أحد الأيام دخل والده الغرفة فوجده يلعب الورق مع أصدقائه، وجُنَّ جنون القاضي الشرعي، وصرخ بأعلى صوته: «بتلعبوا قمار.. وفي بيتي؟!!!» وارتجَّ كامل للمفاجأة لكنه سارع، قائلاً: «أبدا يا بابا.. إحنا بنلعب بوكر!» فخفت صوت الأب، وقال: «أوعى يا ابني يكون قمار..» فقال كامل: «والله العظيم بوكر يا بابا»!!

«٣»

سأل المرحوم تقلا، مؤسس جريدة «الأهرام»، العم كامل الشناوي عما إذا كان له أصدقاء من الوزراء، فأجابه كامل الشناوي بعفوية: «إنني أسهر كل ليلة مع محمد محمود باشا!» فخبط تقلا باشا كُفًا بكُفٍّ، فأمامه صحفي يصادق رئيس الوزراء، ثم يكتب في جريدته شعراً! فصرخ تقلا في كامل وشرح له أن هذا هو أهم مصدر صحفي في مصر، ويجب أن يكون ذكياً وقادراً على التقاط الأخبار التي تُقال أمامه، وبالفعل ذهب كامل وحصل على خبطة صحفية كبرى لـ«الأهرام»، وأدرك محمد محمود باشا أن مَنْ سرَّب الخبر هو كامل الشناوي فقرر أن يلقنه درسًا لم ينسه! فذات مساء وفي أثناء جلوس كامل بصحبة رئيس الوزراء سمعه يقول: «إن جوبلز وزير الدعاية في حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرًّا، ونزل في فندق سميراميس»، فطار كامل ليبلغ تقلا بما جرى، لكن مؤسس «الأهرام» تشكك في المعلومة، فبحث وتقصَّى وتحرَّى

حتى أدرك أنه فخ نصبه رئيس الوزراء ليصطاد كامل الشناوي!  
ربما هذه المرة الوحيدة التي صار فيها الشناوي صيدًا،  
فهو دائمًا يلعب دور الصياد، أينما ذهب أو حل، لكنه حين  
حلل نفسه بالأرقام من واحد لعشرة أعطى نفسه في الشجاعة  
٦، والصدق ٨، والحب ١٠، والغيرة ٧، والغضب ٢، والأناقة ١،  
والشكل صفر!

وحين سألته الإعلامية آمال فهمي: ما الشيء الوحيد الذي  
جاملك فيه الزمن؟ فأجاب: «سواد شعري»!

وقبل رحيله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ رثى نفسه قائلاً:

إذن حان حيني وانتهى العمر

إنه عزيز على نفسي فراق حياتيا

أمشواي في لَحْدٍ من الأرض ضيق

وما كنتُ بالدنيا العريضة راضيًا؟

obeikandi.com

## الاستثنائي!

«١»

«ما دام فينا رجل له كل هذه اللماحية والذكاء والوعي والعبث والمرح والقدرة على التلخيص والتواصل، وما دام قادرًا على إبداع رسوم كهذه، فلا بد أن الحياة ما زال فيها ما يستحق أن نعيشه!»!

هكذا كان عمنا صلاح جاهين، مثلما وصفه عمنا محيي الدين البباد.

جاهين كان رقمًا قياسيًّا في كل شيء، في الكاريكاتير، والشعر، والسيناريو، والمقال، والكتابة الساخرة، وصناعة الأفلام علاوة على قدرته الخارقة على اكتشاف أصحاب المواهب أو تلميعهم وتغيير مسارهم، وجعلهم يتصدرون المشهد.

رغم قدرات جاهين الاستثنائية في صناعة الابتسامة على وجوه الناس فإنه أيضًا كان بمثابة الملهم؛ فقد كان الشاعر الكبير أمل دنقل في رحلة مرضه لا يتناول الدواء إلا وهو يسمع «رباعيات» صلاح جاهين.

جاهين ترك بصمة بارزة في كل من عرفه، وكان بمثابة أكاديمية فنون تسير على قدمين، فقد تبنى عددًا هائلًا من المواهب، لعل أشهرها سعاد حسني ونيلي وأحمد زكي، لكن إنسانية جاهين غلبت فنّه، فذات يوم حدث خلاف بين أحمد زكي وزوجته، ترتّب عليه أن تركت الزوجة البيت، ولم تفلح

محاولات الصلح بينهما، وفي ذات التوقيت كان جاهين قد خرج لتوّه من عملية جراحية في القلب، لكنه بمجرد أن خرج من المستشفى اتصل بأحمد زكي، وقال له: «لو فاضي تعالى عشان عايز أروح إسكندرية»، وبالفعل اتجها إلى الإسكندرية وبمجرد أن وصلا أخرج جاهين ورقة من جيبه فيها عنوان، وظل يسأل عنه حتى وصلا إلى العنوان المطلوب، وبمجرد أن طرق جاهين الباب وجد زكي نفسه يقف أمام حماه، وأصلح صلاح بين أحمد زكي وزوجته، وأصر على أن يعود إلى القاهرة وحده في نفس اليوم.

«٢»

انطلق في طريق النجاح كالشهاب، لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة، لكن شِعْرهُ الشعبي بَشَّرَ بالثورة قبل أن توجد، وزكّاه أنه عُرِفَ ببعده عن الأحزاب، وهو من ناحيته وبتلقائية وإخلاص، كَرَسَ شِعْرهُ للثورة، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعري في أجمل صورته، ثم سرعان ما يترجم إلى غناء تردده الإذاعة والتلفزيون... تلك هي الصورة التي رسمها نجيب محفوظ برويته الثابتة في رواية «قشتمر» لعلاقة صلاح جاهين أو «طاهر عبيد» بالثورة ورجالها، تلك الصورة التي التقطها محفوظ لا تختلف كثيراً عن الواقع لأن جاهين أحبَّ جمال عبد الناصر قبل أن يلتقيا، بل كانت أشعاره التي كتبها دعوة صريحة للثورة.

وحين قامت الثورة كان الثلاثي «عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وجاهين» يلتقون في بداية شهر يونيو من كل عام

لتحضير أغنية جديدة، وظل الثلاثي على العهد حتى مرض والد جاهين بالسرطان، ولم يتحمل صلاح الخبر واختفى تمامًا وحاولت أسرته الوصول إليه دون جدوى لمدة عشرة أيام، بعدها أقسمت بهيجة «أخته» أن «حليم هو اللي مخبيه»، فذهبت إلى بيته وقالت له: «عاوزين صلاح ضروري، أبوه تعبان ومحتاج يشوفه وانت مخبيه عندك»، فقال حليم: «والله هو ما عندي ولا حتى شفته.. ادخلي دؤري عليه، وعمومًا أنا هاجيبه لحدّ عندك»، وبالفعل أحضره في اليوم التالي بعد أن نشر إعلانًا في «الأهرام» يقول فيه: «ارجع يا صلاح.. أهلك بيدؤروا عليك».

عاد جاهين إلى بيته!

حين اعتلى الرئيس السادات كرسي الحكم في مصر، ظن أن جاهين سوف يناصره، إلا أنه فوجئ بأن «ماfish بينهم كيميا»، فقد كان صلاح لا يحب السادات بل كان يعانده بكتابة قصيدة جديدة في «الأهرام» كل عام في ذكرى وفاة عبد الناصر، مما أغضب السادات بشدة وجعله يرسل إليه واحدًا من رجال الحكم كان معروفًا بلباقته ليلغّه رسالة تقول: «الرئيس بيقولك انت مابتكتبش عنه ليه؟»، وكان رد جاهين: «والله أنا مش ترزي!»

«٣»

أنا من جيل «بوجي وطمطم» و«أبريق الشاي»، الجيل الذي تربّي على أن رمضان لا يأتي دون أغاني صلاح جاهين، وحفظ «صباح الخير يا مولاتي»، وكان يردد «المصريين أهمّه»، الجيل الذي كان -ولا يزال- يذهب لمشاهدة «الليلة الكبيرة»

ولا يعرف أن صاحبها انتهى من كتابتها عام ١٩٥٧م، ليشاهدها الأطفال مع افتتاح التلفزيون في يوليو ١٩٦٠م، وأنها اشتركت في مسابقة أوروبا الشرقية في نفس العام وحصدت كل الجوائز المخصصة لأعمال الأطفال، لكن أكبر جائزة حصل عليها جاهين ورفاقه عن «الليلة الكبيرة» هي أنها ظلت على مدار خمسين عامًا أكثر عمل درامي غنائي تعلقت به قلوب الأطفال في تاريخ مسرح العرائس، فكلنا ما زال يحفظ في ذاكرته، رغم أعباء الحياة، «الليلة الكبيرة يا عمى والعالم كثيرة»، بل إن بعضنا يحتفظ بهذا الأوبريت الفدّ على الكمبيوتر ليشاهده مع أبنائه، ولكن الغريب في هذا العمل أن جاهين نفسه كان يرى أن «الليلة الكبيرة» خرجت أفضل مما توقّع وعاشت أكثر مما خطط!

وعندما استقر في القاهرة جمعته الصدفة بالفنان سيد مكاوي لتنشأ بينهما صداقة قلّما تتكرر؛ فقد كان جاهين يصف علاقته بمكاوي بـ«العسل والطحينة»؛ فكانا يذهبان إلى الموالد في كل مكان وعلى رأسها مولد «السيدة زينب»، ويجلسان معًا بالساعات الطويلة في شقة جاهين في ميدان لاطوغلى لتجهيز «الليلة الكبيرة» وغيرها من الأعمال التي جمعتهما، ولكن أطرف ما في هذه اللقاءات أنهما في إحدى المرات «كانوا يبهزروا وبيضحكوا»، فألقًا ولحنًا الأغنية الشهيرة: «يا صهبجية.. إيه يا لا لبي».

لذلك عندما سألته مذيعة: لو هتعيش في جزيرة لوحدك ومسموح لك تاخذ شخص واحد معاك.. تاخذ مين؟ قال: سيد مكاوي.

في الوقت الذي كان يحتفل فيه العلماء باكتشاف كوكب جديد في المجموعة الشمسية هو كوكب بلوتو، كانت صرخات سيدة تدعى أمينة تنطلق في كل مكان داخل بيت من أربعة أدوار يملكه الصحفي أحمد حلمي في شارع «جميل باشا» بشبرا، تلك الصرخات التي كان سببها الولادة المتعثرة بشدة -كأن المولود يرفض أن يخرج إلى الدنيا- التي جعلت المولود لا يصرخ فور ولادته؛ ليظن الجميع أنه قد وُلد ميتًا!

لكن في هذه اللحظات صرخ المولود «محمد صلاح الدين» بعد ولادة متعثرة، وأكد علماء النفس أن تلك اللحظات تركت آثارها على شخصيته وتسببت له في عدم استقرار الحالة المزاجية، فجعلته عندما يفرح يكاد يطير وعندما يحزن يصل إلى درجة الاكتئاب، إنها علامات النبوغ التي اتصف بها صلاح جاهين.

ظلت الحالة المزاجية لجاهين تتأرجح حتى ليلة ١٦ من أبريل عام ١٩٨٦... ليلة الغارة الجوية الأمريكية على ليبيا والتي سقط فيها المدنيون، دخل جاهين غيبوبة الموت التي كانت كل الأحداث المحيطة به تدفعه إليها؛ فتلاميذه الذين صنعهم تناولوا عليه، والمسؤولون عن المسرح القومي سحبوا مسرحيته «إيزيس» في الوقت الذي كانت فيه تحقق أعلى إيرادات في تاريخ القطاع العام، ليضعوا بدلا منها مسرحية «مجنون ليلي» التي لم يشاهدها أحد، ويومها عبّر عن ذلك بكاريكاتير في الصفحة التاسعة بجريدة «الأهرام» ينتقد فيه المسرحية.

ولم تتوقف المصائب عند هذا الحد، بل إنه عندما دقَّت الفرحة أبواب قلبه بعد صدور الديوان الأول «الرقص في زحمة المرور» لابنه بهاء تم وأد هذه الفرحة في مهدها، لأنه في هذه الأثناء وقعت أحداث شغب تسببت في حرق ملاهي شارع الهرم فقام كرسام كاريكاتير بالربط بين أحداث الشغب واسم ديوان بهاء، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا من زحمة المرور»، لكنه فوجئ بأن تم حذف اسم بهاء من الكاريكاتير على يد المسؤول عن الديسك المركزي، ويومها ردَّ جاهين على مَنْ انتقدوه لأنه يروِّج لديوان ابنه قائلاً: «والله يا جماعة أنا لو شفت أن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف»، ولكن هذه الواقعة لم تمر مرور الكرام بل تركت أثراً نفسياً بداخله.

رحل جاهين وهو يحلم أن يبني مسرحاً مثل شكسبير يقدم فيه ما يريد دون قيود أو ضغوط، لكنه عاش ومات لا يملك من حطام الدنيا سوى أرصدة في القلوب وليست في البنوك. رحل جاهين بعد أن زار الكعبة، لتبكي عليه الأرض التي أضحكها قبل البسطاء الذين عشقوه.

رحل صلاح الإنسان، وبقي جاهين المبدع الذي تتردد أغانيه في كل المناسبات من عيد الأم إلى عيد الربيع، وتتصدر رباعياته مبيعات سوق الكتب؛ لتعلم الدنيا بأسرها أنه ما زال يحيا بيننا وتظل وصيته تتناقلها الأجيال:

أوصيك يا ابني بالقمر والزهور

أوصيك بليل القاهرة المسحور

وإن جيت في بالك.. اشترى عُقد فُلِّ

لأي سَمْرًا.. وقبري إوعك تزور

## فارس هذا الزمان الوحيد

«١»

في عام ١٩٤٠ وقف علي ماهر باشا رئيس الوزراء، أمام البرلمان، وأعلن أن مصر سوف تقوم بتقديم المعونة لبريطانيا! في هذا العام وُلد الشاعر الفدّ أمل دنقل، لكن حين رحل -قبل أن يُكمل عامه الثالث والأربعين- كانت مصر تنتظر حظها من المعونة التي تأتي لها سنويًا من أمريكا! لكن ظل البعض يردد ما قاله أمل:

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

ولا أحد يتصور أن هذه القصيدة الأشهر في تاريخ أمل دنقل قد كتبها في نوفمبر من عام ١٩٧٦، أي قبل أن يعلن الرئيس السادات عن نيته الذهاب إلى إسرائيل، كأنه كان يقرأ الطالع السياسي للرئيس، لذلك لو أن هناك شاعرًا واحدًا ملهمًا لكان -بلا جدال أو نقاش- أمل دنقل.

هو معجزة لدرجة أنك تعجز عن وصفه!

فلو حصل على نصف حقه فقط ربما لظلت وسائل الإعلام تتحدث عنه ليل نهار بلا انقطاع، فمروره على الدنيا دليل أن عصر المعجزات لم ينته.

فلا يحتاج إلى لقب أو تعريف أو تقديم، ولا يمكن أن تضع له منطق الأناس العاديين فهو استثناء منذ خلقه الله، ولا

يجوز أن تضع معايير لتقييمه، فهو حالة فريدة يجب دراستها بشكل منفرد.

فقد ظل أمل دائماً يرى ما لا يراه سواه، ويحلم بالمستحيل لكنه لا يحلم لنفسه، فحلمه مرتبط بوطنه، لذلك حين رحل نعاه الفدّ يوسف إدريس قائلاً: «لن أطلب منكم الوقوف دقيقة حداداً، فنحن إذا وقفنا حداداً، سيكون الحداد على عصر طويل قادم، حدادا على العصر الذي سيمضي حتى يشبّ فيه رجال لهم شيم الرجال الذين كان يراهم أمل دنقل، وكرم الرجال الذين كان يحلم بهم أمل دنقل، وشرف ونبل وإنسانية وشجاعة ورقة الرجال الذين استشهد أمل دنقل وهو يراهم، ويحلم برؤيتهم».

«٢»

«هو فوضوي يحكمه المنطق، بسيط في تركيبة شديدة، صريح وخفيّ في آن واحد، انفعالي متطرف في جرأة ووضوح، وكتوم لا تدرك ما في داخله أبداً.

يملاً الأماكن ضجيجاً، وصخباً، وسخرية، وضحكا، ومزاحاً. صامت إلى حد الشرود يفكر مرتين، وثلاثاً في ردود أفعاله وأفعال الآخرين، حزين حزناً لا ينتهي.

استعراضيّ يتيه بنفسه في كبرياء لافت للأنظار. بسيط بساطة طبيعية يخجل معها إذا أطريته وأطريت شعره، وربما يحتد على مديحك خوفاً من اكتشاف منطقة الخجل فيه.

صخريّ شديد الصلابة، لا يخشى شيئاً ولا يعرف الخوف أبداً، لكن من السهل إيلام قلبه.

صعيدي محافظ، عنيد لا يتزحزح عما في رأسه، وقضيته دائماً هي الحرية، ومشواره الدائم يبدأ بالخروج. عاشق للحياة، مقاوم عنيد، يحلم بالمستقبل والغد الأجمل، ولا يحب منطقة الوسط، ولا ينتمي إلى المناطق الرمادية، ويمقت الحلول الوسط، إنه يتلف كل الألوان ليظل الأبيض والأسود وحدهما في حياته. هارب دائماً من كل مناطق الحياد التي تقتله».

هذا هو أمل دنقل كما عرفته ورأته ووصفته أرملته المبدعة البديعة عبلة الرويني أقرب الأحياء إلى قلبه، فأمل حالة خاصة، ولون إبداعي فريد، وشخصية يصعب وصفها أو تكرارها.

«٣»

فقدَ أمل كثيرين في رحلة حياته القصيرة، في السابعة عرف أمل فقَدَ الأخت، وفي سن العاشرة عرف فقَدَ الأب، وقبل أن يبلغ السادسة عشرة - في عام ١٩٥٦ - تدرب أمل دنقل على حمل السلاح!

وقتها أعلنت المدرسة أنها ستقوم بالتعاون مع الجيش بتدريب الطلاب على السلاح حتى يستطيعوا الاشتراك في المعركة ضد العدوان الثلاثي على بورسعيد الباسلة.

فسارع أمل دنقل بالاشتراك في التدريب في «حوش المدرسة»، وبالفعل ظل التدريب قائماً عدة أيام حتى أجاد التعامل مع السلاح، لكن بعد انتهاء فترة التدريب تم إبلاغه بأنه سيعمل في الدفاع المدني، فطغى الحزن عليه، وشعر أنه بحاجة ماسة إلى أن يعبر عن انفعالاته، وأن لديه ما يقوله، فوجد نفسه

يكتب أول قصيدة في حياته، ليكتشف أن بذرة الشُّعر تعيش داخله، وقرر في هذه اللحظة أن يحارب بالقصيدة. في هذه الأثناء كان أمل ما زال طالبًا في المدرسة الثانوية، وفجأة هبط إلى فصله مدرِّس حضر لتوّه من القاهرة، وقال: «أنا اسمي توفيق حنّا، وهادرّس لكم فرنساوي».

كان توفيق حنّا بمثابة نقطة التحول الأهم في حياة أمل دنقل، فقد كان يحكي له عن القاهرة، وعن كبار الأدباء والمثقفين، وكان ذلك عالمًا مجهولًا لتلميذ في ثانوي.

وتفتّح وعي أمل وحصل على الثانوية، وترك المدرسة، وذهب إلى جامعة القاهرة -بصحبة صديق عمره عبد الرحمن الأبنودي- وحينذاك كانت القاهرة حافلة بكل الأنشطة السياسية والثقافية، فنيّسًا في صخب القاهرة أنهما طالبين في الجامعة حين شغلتهما الثقافة عن الدراسة.

وعادًا إلى قنا للتفرغ للشعر والقراءة، وعمل الأبنودي في المحكمة ككاتب جلسة، في حين تسلم أمل عمله كمُحَضَّر في المحكمة -وكان من مهام وظيفته أن يقوم بتنفيذ أمر المحكمة بالحجز على ممتلكات الناس- لكنهما استقالا بعد أن تحملا كمًّا هائلًا من السخافات طوال فترة عملهما في هذه الوظيفة ثقيلة الظل.

وعاد الاثنان إلى رشدهما ورجعا إلى القاهرة، وظلا يناضلان فيها حتى صار كلاهما بمثابة معجزة شعرية كبرى، وصار لكلُّ منهما مدرسة لها مريدون من المحيط إلى الخليج، أحدهما صار من علامات الشُّعر العامّي، والآخر صار يُدرّس شعره في أقسام اللغة العربية لطلاب الجامعات.

لكن الأهم أنهما ظلا صديقين حتى الرمق الأخير في حياة

أمل دنقل، لكن المدهش أن أمل في هذا اللقاء قبل الأخير قال للخال: «أنا سمعت لك غنوة كنت عاملها لمحمد قنديل في عيد الربيع وما سمعتهاش تاني، أنا عايز الغنوة دي دلوقتي».

فتعجب الخال وسأله: «اسمها إيه؟»، فقال: «ناعسة».

الغريب أن الأبنودي لم يتذكر الأغنية مطلقاً، وسأل عنها كل الملحنين الذين تعاون معهم، حتى وجدها لدى حلمي أمين الموجي، وكانت تائهة وسط الشرائط، وظل يبحث عنها حتى وجدها.

وذهب الأبنودي لأمل، ليسمع الأغنية التي طلبها، وكانت تقول:

ويا ناعسة لا لا.. لا لا

خُلِصت معايا القِوَالَة

والسهم اللي رماني

قاتلني لا محالة!!

كأن أمل كان يقرأ نفسه في هذه الغنوة، فالسهم قد أصابه،

ولا محالة.

obeikandi.com

## الشعر ذاته

«١»

في ١٦ يونيو ٢٠١١ كانت المرة الأولى التي أتقي فيها الخال وأجلس معه.

يومها ذهبت إليه في بيته في الضبعة في الإسماعيلية بتكليف من الأستاذ إبراهيم عيسى لأحصل منه على أحدث قصيدة كتبها لنشرها في جريدة «التحرير» في الأعداد الأولى.

القصيدة كانت «لسه النظام ماسقطش»، عنوانها كان لافتًا، فلم يكن وقتها بعد شهور قليلة من ثورة يناير قد التفت أحد إلى أن النظام القائم هو امتداد للنظام السابق الذي ثار الشعب عليه، لذلك أمسكت بالورق الذي سطر عليه الخال قصيدته لأقرأ ما فيه لكنه أمسك الورق من يدي، وأعادته إلى المنضدة التي أمامه مقلوبًا!

كان هدفه أن لا أقرأ أمامه، ثم قال لي: «اقرأ لما تمشي، وابقى كلمني قول لي رأيك».

اندهشتُ لكنني التزمتُ بما قاله الخال، فقد كنت أحمل في ذهني طوال طريقي إليه كل ما قيل عنه، من ثناء عظيم، ونقد حاد.

لكن أكثر ما جال بخاطري هو ما كتبه الأديب خيري شلبي عنه حين قال: «الأبنودي يوضّح في كفة، وجميع شعراء جيله -فصحى وعامية على السواء- في كفة... حقًا إن كل شعراء جيله

على درجة كبيرة من الموهبة، أما هو فإنه نَفَسٌ شِعْرِيٌّ خاص، تيار كامل، مدرسة، لا أقول إنه موهوب بل أقول إنه الشُّعر ذاته، خلقه الله أصلاً ليكون شاعراً».

قرأتُ ما كتبه خيرى شلبي عشرات المرات، فكان بدهياً أن أذكره، وأتذكره، وأنا في طريقي إلى الإسماعيلية لمقابلة الخال، لذلك كنت أدرك قيمة وأهمية وروعة أن أكون أول من يقرأ واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبنودي، كنت شغوفاً جداً لقراءة القصيدة في أسرع وقت ممكن، فانتهيت من قراءتها قبل أن أصل إلى القاهرة، وتوقفت كثيراً عنده قوله:

الثورة كالزحلفة.. ولكنها ثورة

كانها لعبة ولعبناها في محاورة..

كسبنا دَوْرَةَ.. وغيرنا كسبوا ميت دَوْرَةَ

وإن جيتوا للجد.. قَدَمَ الثورة مشلولة

الثورة.. لازِمها ثورة أقوى من الأولى

المدهش أن الخال كان مهتماً أن يسمع رأبي في الملحمة البديعة، وكنت مندهشاً من سعادته برأبي، فهل كان يحتاج إلى رأي شاب لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره في واحدة من أبداع قصائده؟ هل يصل إلى هذه الدرجة من التواضع؟ هل مَن كان يسمع رأي صلاح جاهين وفؤاد حداد وأمل دنقل ونزار قباني ومحمود درويش يمكن أن يسمع رأي أحد بعد رحيلهم؟! الأسئلة لم تنته، لكنها بدأت.

وتعددت اللقاءات بيني وبين الخال، وصار بيننا تواصل دائم، واتصال شبه يومي، وتأكدت بعد أن توثقتُ علاقتي به أنه شديد الخجل حين يسمع مَنْ يُثني عليه، وأنه حين ينتهي من كتابة قصيدة جديدة ينتظر آراء العوام فيها قبل آراء المتخصصين، ويُنصت حين يسمع هذه الآراء بصورة تدعو إلى الحيرة والدهشة.

لكنه الإخلاص وحده.

فهو حين يكتب جديدًا لا يعتمد على رصيده الضخم في قلوب محبيه، بل إنه يريد أن يعيد اكتشاف نفسه وموهبته الفذة مع كل كلمة يكتبها، وهذه هي القيمة الحقيقية لعبد الرحمن الأبنودي ذلك المعين الذي لا ينضب، رغم أن أمثاله من نجوم الشُّعر يكتفون بما قدموه، وهو بالفعل يكفيهم.

لكن هذا هو عبد الرحمن الأبنودي الذي أَحَبَّه الشعب المصري لبساطته، قبل شِعْره، لكنني عرفت الخال عن قرب تمام المعرفة عبر «المربعات» التي تعد أكبر ملحمة شعرية لو نظرنا إليها نظرة فاحصة وموسوعية.

فقد أرخت لعام كامل في تاريخ مصر، ولم نعهد مثل هذا التأريخ بطول التاريخ وعرضه، ولم نعرف تأريخًا مشابهًا سوى تاريخ الجبرتي الذي كتبه نثرًا، بينما كتبه الخال شِعْرًا لتوثيق كل ما جرى في مصر يومًا بعد يوم ولمدة عام كامل، لم يكن يتصور الأبنودي في بدايته أنه يمكن أن يستمر أكثر من ثلاثة أشهر -من تجربة استثنائية لا يمكن تكرارها- في كتابة شعر

يومياً.

لكن للمربعات قصة وتفاصيل شاء القدر أن أكون شاهداً عليها.

البداية كانت عندما اتصلتُ بالخال، أطمئن عليه، وأسأله عن صحته وأحواله، ففاجأني وقال لي: «أنا لقيت نفسي باكتب حاجة كده عايزك تسمعها»، وقال:

إحنا ما طردناش مبارك

ولا حطيناه في سجن

بُصّ في الجورنال.. مبارك

نفسه.. بس طلع له دقن!!

وصفقتُ للخال واستأذنته في نشرها في جريدة «التحرير»، فوافق متكرماً، واتصلت بالأستاذ إبراهيم عيسى الذي طار فرحاً بهذه الرباعية -التي لم يكن الخال قد أطلق عليها اسم مربع- واحتفى بها -كعادته في الاحتفاء بالمبدعين- في الصفحة الأولى من جريدة «التحرير».

وبدأ الأستاذ إبراهيم يتواصل مع الخال ليكتب في «التحرير، واتفقا على أن يحصل الخال على فرصة لمدة أسبوع للتفكير، للرد إذا كان يستطيع الكتابة أم لا، لكن بعد ثلاثة أيام فقط كان رد الخال جاهزاً وحاسماً وقال: «أنا جاهز.. أنا هاكتب مربعات.. كل يوم مربع».

كان الخال خلال يومين فقط قد كتب عدداً هائلاً من المربعات، فتذكرتُ ما قاله عنه خيري شلبي «إنه لا يعاني من الكتابة ولا يبذل جهوداً مضيئة في الإبداع إنما هو يمتاح من بئر ليست تنفذ».

وبدأت رحلة «المربعات» اليومية، وقرر الخال أن يلاحق الأحداث بشعره، فعندما كثرت خطابات الرئيس محمد مرسي، وقلت أفعاله كتب يقول:

وعازليتي عن الدنيا  
بقيت ماعرفش شيء عنكم  
كأني رئيس بلد ثانية!!  
بقيت باخطب بدل ما احكم

استمرت المربعات، وصار اتصالي بالخال كل يوم، مرة ومرتين، وأحياناً ثلاثاً ولم أجد في حياتي أحرص من الخال على ما يكتبه، فهو يُراجع ويُدقق ويُفند ويُفكر ويدرس ولا يكَل ولا يمل من مراجعة كل شيء بدقة بالغة.

ففي كل يوم يصل «المربع» على الفاكس ثم نقوم بكتابته على الكمبيوتر، ومراجعته ثم إرساله إليه ليتأكد من كل كلمة وحرف وتشكيل موضوع فوق الحروف، ثم بعد ذلك يعيد إرسال المربع مرة أخرى بتعديلاته، وربما تتغير الأحداث في دقائق، فيرسل مربعا آخر، فيمرّ بنفس دائرة العمل.

وكان الخال يرسل المربعات بأكثر من طريقة، فهو يرسل سبعة مربعات كل يوم جمعة، ليتم نشرها على مدار الأسبوع، لكنه كان يقوم بإرسال مربعات أخرى طوال أيام الأسبوع خصوصا أن الأحداث كانت متلاحقة، وقد أراد أن يؤرخها شعراً. ولعل أكثر المربعات انتشاراً على صفحات التواصل الاجتماعي هو ما قاله بعد ثورة ٣٠ يونيو التي وقف فيها العالم أمام

إرادة الشعب المصري، وحاولت دول كثيرة أن تعيد الإخوان إلى الصورة وإلى الكرسي لكن جاء الرد من الخال قاطعًا بقوله:

لا أمريكياني.. وَلَا ألماني..

ولا إيراني.. وَلَا أردوغاني..

ولا قَطَر ولا مِيت آل ثاني..

حَيَّرَجَّعُوا (العَرْش) الإخواني!!